

## من الخروج على الأهل الى الخروج على الذات

منذ البداية طرحت قصيدة النثر نفسها بوصفها الابنة غير الشرعية للقصيدة العربية. الأحرى، لم تكن هذه القصيدة "بنت حرام" لفحها الأجنبي "المستعمر" في عرف حرّاس التراث بل حملت مشروعاً مناهضاً للثقافة العربية التي مثّلتها القصيدة الكلاسيكية المتحالفة مع الحاكم. يكفي أن أشير إلى أن الشعراء العرب الكبار في غالبيتهم كانوا مدّاحين. لم يمضِ وقت كبير حتى تم تعريب هذه القصيدة وإسنادها بمرجعيات عربية. وذهب البعض إلى محاولات لتأصيلها بالبحث عن جذورها في النثر العربي من كتابات الصوفيين إلى لغة جبران خليل جبران. ومع ذلك ظلّت قصيدة النثر مقصية عن الأكاديميات المتجهمة.

لقد انتقل النقاش من الأدب إلى صراع على الهوية: المحافظون رأوا فيها حصان طروادة لدخول مدينة سقطت من الداخل، ورواد قصيدة النثر استخدموها لا كشكل فني فحسب، وإنما كمدخل إلى نقض البنى السياسية والاجتماعية والثقافية العربية. كان الشكل مجرد واجهة لصراع يجري في الظل. بمعنى آخر كانت قصيدة النثر التغيير الذي يجري من الخارج ويستفزُّ الورثة التقليديين لعصور إقطاعية طويلة. والشكل نفسه لم يكن سوى القشرة الخارجية لمعركة اللغة. إذ إنّ تاريخ القصيدة الخليلية طالما أخذ أشكالاً عدة من الموشحات إلى القصيدة التفعيلية. القرآن نفسه كان تحدياً للأشعار الكتابية السائدة في شبه الجزيرة العربية لكن بلغة الآباء. لنقل إنّ قصيدة النثر اقتصرت لغة جديدة نُظر إليها على أنّها شعبية ثانية تماماً كشعوبية الفرس التي حمل لواءها شعراء أخذوا الشكل التقليدي للقصيدة العربية لكن بلغة حيّة ومتمردّة أمثال أبي نواس وبشار بن برد. لقد بحثت قصيدة النثر العربية عن لغتها خارج المعاجم. وبهذا كانت تخلص أكثر للشعر. الشعر فنّ مضاد للمعجم. ثمّة رحلة تقطعها المفردة في طريقها الطويل من القاموس إلى القصيدة. وأثناء

هذه الرحلة تخسر الكلمة جذرها وأصلها وأهلها لتكتسب معارف وأصدقاء ومعاني جديدة. الشعر يكمن في حقله الدلالي لا في حقله المعجمي. إنه عملية تخريب للعالم، إعادة ترتيب لنظام الأشياء، تطاول مستمر على ما وراء الواقع، فعل حرية تنتكر فيه الكلمات لماضيها، لغة بدائية خارجة على المؤسسات. في النهاية، كان على قصيدة النثر أن تريح الشعر بوصفه لغة وتخسر القصيدة بوصفها شكلاً. في كل حال، ما كانت اقتراحات هذه القصيدة لتحفر مجراها في اللغة والشكل لولا الترجمات. الآن، بعد عقود من الترجمة، بات في وسعنا الادعاء أن الترجمات نفسها أصبحت تراثاً عربياً. ثمة شعراء يكتبون اليوم بذاكرة لا تتعدى الخمسين سنة الماضية، أي ذاكرة قصيدة النثر العربية والترجمات الأجنبية. أعتقد أن هذه ملاحظة جديدة بالانتباه.

يبقى أن قصيدة النثر التي أنجزت انتصارها واحتكارها الشعر العربي اليوم، مازالت ابنة غير شرعية. بالطبع لم يعد يعنىها الحصول على الجنسية أو صك براءة. لقد عزلت الأكاديميات داخل الأكاديميات والقصيدة العمودية في كتب التاريخ. والأغلب أن عدم شرعية هذه القصيدة يأتي من داخلها. إنها القصيدة التي تنقلب على نفسها وتنتكر لشروطها دائماً. وبشيء من الوقاحة أقول إن تسمية قصيدة النثر لم تعد تليق بهذه القصيدة التي تستمد براهينها من فمها أو الموجودة بذاتها كما يقال في الفلسفة.

ناظم السيد